الباب الخامس

القدس من البعثة إلى الدولة العثمانية

القدس في صدر الإسلام

كثير من المصادر الإسلامية تناولت القدس: تاريخَها ومنزلتها وفضائلها، سواءٌ أكان ذلك على صورة مؤلفات خاصة بالمدينة المقدسة، أم ضمن مؤلفات عامة.

والنوع الأول مثل: فضائل بيت المقدس لأبي العباس الوليد بن حماد الرملي ت 300هـ تقريباً، وبنفس العنوان لهبة الله بن صصري ت 586هـ، ولأبي الفرج بن الجوزي ت 597هـ، ولبهاء الدين بن عساكر ت 600هـ وقال صاحب كشف الظنون: تواريخ القدس منها: إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى، والأنس في فضائل القدس،والأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، والجامع المستقصَى في فضائل المسجد الأقصى، وباعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس وهو ملخص الجامع والروض المغرس في فضائل بيت المقدس وفتوح بيت المقدس، وقدح القسي في الفتح القدسي، ومثير الغرام إلى زيارة القدس والشام.

وأما أمثلة المؤلفات الإسلامية العامة التي تعرضت للقدس، فمنها: تاريخ الأمم والملوك لمحمد بن جرير الطبري ت 310هـ، وفتوح الشام للواقدي ت 207هـ،وكتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية لأبي شامة ت 665هـ.. إلخ والملاحظ أن هذه الكتب حين تتناول تاريخ القدس قبل الإسلام، تكتفي بسرد الروايات اليهودية حول صلة الأنبياء وعلاقة بني إسرائيل بهذه المدينة وهذه المرويات اليهودية بها كثير من النقص والتحريف، وبالتالي لا يبدو التاريخ من خلالها دقيقاً والمؤرخون المسلمون فعلوا هذا لأسباب منها:

أولا – لم يجدوا أمامهم مصادر تؤرّخ للقدس قبل الإسلام سوى ما جاء في مرويات بني إسرائيل.

ثانيا – لم يكن هنالك صراع على القدس وهويتها بين اليهود والمسلمين ، حتى يمحص المسلمون المرويات، وينفوا الخطأ الكبير الذي شاع، وهو أن تاريخ القدس هو نفسه تاريخ اليهود.

ثالثا – كان من عادة مؤرخي المسلمين المتقدمين أن يثبتوا المرويات كما هي، ومعها سندها، ولكن جاء بعدهم مَن لم يكتفِ بنزع الأسانيد، فروى هذه الحوادث بلا نقد، وكأنها جميعاً تاريخ حقيقي لا يرقى إليه شك.

ونتيجة لما سبق انتشرت مجموعة من المرويات غير الصحيحة حول القدس وفضائلها، وكأن ما ثبت وتأكد بالقرآن والسنة من فضل هذه المدينة المباركة غير كاف وأغلب هذه الروايات المختلقة تخص أماكن معينة من القدس بأنها هي التي شهدت الحادث الفلاني، دون أن تكون هناك رواية صحيحة تثبت هذا، ومن هذه الأماكن: وادي النمل الذي شهد ما قصه القرآن من حكاية النملة مع جيش نبي الله سلمان، ومحراب داود.. إلخ.

ويبدو أن الحرص على هذا الربط يرجع إلى عادة بيزنطة المسيحية في تقديس الأماكن التي يظنون مجرد ظن لا تحقيق له أنها ترتبط بأحداث في حياة المسيح حيث يبنون الأديرة والكنائس، فانتقل التأثير بصورة لا شعورية إلى غيرهم وقد أثبت المؤرخ الحافظ ابن كثير جذراً مهماً لكثير من الاعتقادات الشائعة عند عامة المسلمين حول القدس، مثل أن هذا المكان هو واد في جهنم، وهذا موضع الصراط، وأن هذا هو كذا وكذا مما يتصل بأمور الآخرة، وليس لذلك أصل يقول ابن كثير وهو يتحدث عن عظمة البناء الذي أقامه الأمويون فوق صخرة بيت المقدس: وافتتن الناس بذلك افتتاناً عظيماً، وأتوه من كل مكان، وقد عملوا فيه من الإشارات والعلامات المكذوبة شيئاً كثيراً مما في الآخرة، فصوروا فيه صورة الصراط وباب الجنة وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم ووادي

جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضع منه، فاغتر الناس بذلك إلى زماننا ولا زالت هذه الأفكار ثابتة راسخة عند كثير من الناس إلى اليوم.

معرفة عرب الجزيرة بالقدس قبل الإسلام

لم تكن أمِّية العرب في الجزيرة لتحول دون معرفتهم بالعالم من حولهم، فكانوا يعرفون الهند والصين ومصر والحبشة، ولكن معرفتهم بالشام والعراق كانت أوسع وأعمق، خاصة أن هاتين الجهتين استقبلتا الكثير من الهجرات العربية المتتابعة طوال التاريخ، وقامت فيهما وعلى أطرافهما ممالك عربية كالمناذرة في الحِيرة والغساسنة في أطراف الشام توالي الفرس والروم وكان عرب غرب الجزيرة أعرفَ بالشام ومدنها من العراق وحواضرها، ولم يكن قرب المسافة وحده هو الذي أنتج هذه العلاقة، بل كان نشاط التجارة بين غرب الجزيرة والشام أدعى لترددهم عليها، وطوافهم بأنحائها، فكانت قريش مثلاً تعد قوافلها الصيفية لتتجه إلى الشام سنوياً، فعرف الكثيرُ من القرشيين وغيرهم من العرب أحوال حواضر الشام ومدنها، خاصة الواقعة في الجنوب، ومنها إيلياء: بيت المقدس، وغزة التي كانت وجه متجرهم؛ أي مقصدهم في تبادل السلع والمتاجرة بأموالهم وقد حُفظت لنا بعض الروايات الصحيحة لدخول العرب بيت المقدس قبل أن يعم الإسلام الجزيرة العربية، ففي صحيح

البخاري أن أبا سفيان بن حرب أخبر: أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام، في صلح الحديبية عام 6هـ، فأتوه وهم بإيلياء، وفي رواية لابن إسحاق قال أبو سفيان: فقال هرقل لصاحب شرطته قلّب الشام ظهراً لبطن، حتى تأتي برجل من قوم هذا أسأله عن شأنه فوالله إني وأصحابي بغزة، إذ هجم علينا فساقنا جميعاً وكان هرقل يريد أن يسألهم عن النبي صلى الله عليه وسلم وحاله فيهم، بعد أن تلقى منه رسالة تدعوه وقومَه إلى الإيمان بالله وحده والدخول في الإسلام ولا شك أن الاهتمام الخاص الذي كان يوليه الروم للقدس كان من أسباب شهرتها ومعرفة العرب بها، خاصة أن النصارى كانوا يأتون من بلاد عديدة ليحجوا إلى كنائس القدس، مما يشبه في بعض الوجوه حجَّ العرب إلى البيت الحرام في مكة.

وربما سمع العرب من اليهود الذين سكنوا في اليمن والمدينة وخيبر وفدك وتيماء أشياء عن القدس، أعطتهم انطباعاً خاصاً عن قدْر هذه المدينة، وما سبق للأنبياء من عيش في رحابها، وادعاء اليهود أنها مدينتهم التي وُعدوا بها.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم بالتأكيد يعرف إيلياء القدس قبل بعثته كما يعرفها قومه، خاصة أنه شاركهم في أسفار تجارة الصيف إلى

الشام وقد حاولت قريش أن تستخدم خبرتها ومعرفتها بالقدس لتثبت كذب النبي صلى الله عليه وسلم حين أخبرها بإسراء الله به إلى المسجد الأقصى، لكن الله تعالى أيده قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لَمَّا كَذَّبَتْنِي قُرَيْشٌ حِينَ أُسْرِيَ بي إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قُمْتُ فِي الْحِجْرِ فَجَلا اللَّهُ لِي بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَطَفِقْتُ أُخْبِرُهُمْ عَنْ آيَاتِهِ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْه.

وفي رواية لأحمد أنهم قالوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا الْمَسْجِدَ وَفِي الْقَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ الْبَلَدِ وَرَأَى الْمَسْجِدَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى الْتَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ قَالَ: فَجِيءَ بِالْمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ دَارِ عِقَالٍ أَوْ عُقَيْلٍ فَنَعَتُّهُ وَأَنَا أَنْظُرُ إِلَيْهِ قَالَ وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ.

ويروى أيضا أنهم قالوا: يا محمد، صف لنا بيت المقدس، كيف بناؤه؟ وكيف هيئته؟ وكيف قربه من الجبل؟ وفي القوم من سافر إليه، فذهب ينعت لهم وفي معرفة العرب بالقدس قبل الإسلام يقول أحد أهل العلم: وحكم تخصيص الإسراء إلى المسجد الأقصى: أن قريشاً تعرفه، فيسألونه عنه، فيخبرهم بما يعرفونه، مع علمهم أنه صلى الله عليه وسلم لم يدخل بيت المقدس قط، فتقوم الحجة عليهم.

النبي صلى الله عليه وسلم في القدس

أكّد الإسلام على الصلة بين الأنبياء والرسل، وأنهم جميعاً متفقون في الأصول والأسس، وكل نبي يأتي ليكون جزءاً من بناء واحد يجمعه هو وإخوانَه من النبيين، وعاشوا حياتَهم فوق الأرض عِيشة شريفة طيبة، بلا استعلاء ولا استكبار، ولا مخاصمة للخلق من أجل الدنيا قال تعالى:{ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ}ويتبع هذه الصلة رباطٌ آخر يصل بين البيوت التي أقامها الأنبياء لعبادة الله تعالى، فأولها بيت إبراهيم المسجد الحرام، وبعده المسجد الأقصى، ثم المسجد النبوي بالمدينة المنورة وقد جاءت رحلة الإسراء والمعراج لتؤكد هذه المعاني، وتعبر عن هذه الصلات بين الأنبياء من أولهم إلى خاتمهم، وكذلك بين مسجد مكة ومسجد القدس.

هذه الرحلة التي تأكدت بالقرآن الكريم والسنة المتواترة جرت قبل الهجرة إلى المدينة، لكن لم يُحدَّد بالضبط تاريخها، فمن قائل إنه بعد البعثة بنحو عشر سنين، ومن قائل إنه قبل الهجرة إلى المدينة بسنة، أو بستة عشر شهراً قال ابن كثير: على قول السدي يكون الإسراء في شهر ذي القعدة، وعلى قول الزهري وعروة يكون في ربيع الأول.

وقد ذكر حديثٌ في فضائل شهر رجب أن الإسراء كان ليلة السابع والعشرين من رجب، ولكن ابن كثير قال عنه: لا يصح سنده وفائدة هذا أن نعرف: من كان يسيطر على القدس حين دخلها النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً في صحبة الملائكة، فلم يملك أحد أن يصدَّه عنها، وصلى بالأنبياء في أرض المسجد الأقصى؟.

لقد سيطر الفرس على القدس من سنة 615م = 6 من البعثة إلى سنة 628م = 6هـ، وهذا يعني أن رحلة الإسراء المباركة تمت والقدس تحت سيطرة الفرس الساسانيين، في هذه الرحلة سافر النبي صلى الله عليه وسلم ليلا من بيت الله الحرام، بوسيلة سفر غير معتادة تسمى البراق، حتى وصل إلى المسجد الأقصى، وهناك ربط البراقَ في الحَلْقة التي يربط فيها الأنبياء وبعد أن انتهى من جزء الرحلة الأول الإسراء، كانت القدس محطةً لانطلاقه صلى الله عليه وسلم في المرحلة الثانية المعراج، حيث الصعود في رحلة تكريم وتكليف له ولأمته إلى السموات العلى وسدرة المنتهى.

ورحلة الإسراء والمعراج هذه أعطت القدس لدى المسلمين أهمية عظيمة؛ لأن الله تعالى اختارها مقصدا للإسراء وبداية انطلاق للمعراج،

فتأكد من ذلك خصوصيتها بالفضل ورفيع المنزلة من دون بقاع كثيرة من الأرض.[1]

القدس والصحب الأول

هناك أحكام عديدة طبقها المسلمون على البلاد التي فتحوها، وقد توقف أغلب هذه الأحكام على وقوع الفتح صلحاً أو حدوثه قهرًا، وحرص الفقهاء والمؤرخون المسلمون على بيان الصفة التي فتحت بها مختلف الأمصار والبلدان، ومن ذلك فتح بصرى بالشام وصفد وطبرية بفلسطين صلحاً، وفتح رامهرمز بفارس والموصل والإسكندرية بالعراق ومصر عنوة وقهرا وبيت المقدس يحسب ضمن البلدان التي فتحت على المسلمين صلحاً، وذلك في سنة ست عشرة للهجرة.

حين نجح المسلمون في تصفية وجود الروم في جميع نواحي فلسطين، ما عدا القدس والرملة، صار الروم محصورين في هاتين البقعتين، وتهاوت آمالهم في الحصول على أمداد أو معونات من إخوانهم خارج فلسطين، فانسحب أرطبون والرومان متجهين إلى مصر، وطلب أهالي القدس والرملة الصلح مع المسلمين، وراسلوا عمرو بن العاص

1- ابن كثير: البداية والنهاية 3/ 108 – 109

لذلك، على أن يأتي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنفسه لتسلم مفاتيح المدينة المقدسة.

وتذكر الروايات أن أهل القدس حين راسلوا عمرو بن العاص على التسليم، ذكروا له أن صفة الرجل الذي يفتح بيت المقدس كما تقول كتبهم تنطبق على صفة عمر لا صفة عمرو ويبدو أنهم أرادوا تكريم المدينة المباركة بهذا،وإعطاءها خصوصية في الفتح ليست لغيرها وبالفعل قدم صاحب رسول الله العظيم عمر بن الخطاب إلى بيت المقدس، ودخلها في كوكبة من الصحابة ورجال الفتح، ليتسلم المدينة من بطريقها صفرونيوس، ونزل على جبل المدينة الشرقي جبل زيتا وكانت لحظة رائعة هذه، إذ ورث أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أرض الأنبياء، ووصلوا حاضر الموحدين بماضيهم، فعلوا ذلك لا بكبر وجبروت، ولا بظلم وتعال، وإنما بإيمان كالرواسي الرواسخ وخلق يسمو على الصغائر والتوافه، وعدل يترفع عن مجاملة شريف أو الجور على فقير وكتب أمير المؤمنين الفاروق بمنطقة الجابية في الشام كتاب الصلح بين المسلمين وبين المقدسيين.

وشهدت خلافة عمر بن الخطاب أشد المراحل حسما في تقرير مصير فلسطين، فقد أخذت حشود البيزنطيين تتجمع في منطقة اليرموك للقضاء

على المسلمين، فعزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد وولي قيادة الجيوش لأبي عبيدة بن الجراح ولما التقى الجمعان في معركة اليرموك في ذات العام 13هـ / 634م وتم النصر المبين للمسلمين وهزم جيش الروم شر هزيمة، أرسل أبو عبيدة بالبشارة إلى عمر بن الخطاب، فرد عليه عمر أن يوجه شرحبيل بن حسنة وعمرو بن العاص إلى الأردن وفلسطين.

وفي سنة 15 هـ / 636م وبعد معركة أجنادين نجح المسلمون بقيادة عمرو بن العاص في فتح العديد من مدن الشام وفلسطين، فتوجه القائد أبو عبيده بن الجراح نحو مدينة القدس لحصارها وفتحها، وصادف حصار المسلمين لمدينة بيت المقدس أيام الشتاء والبرد، فظن الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت، إلا أن حصار أبي عبيدة للمدينة استمر أربعة أشهر كاملة، وما من يوم إلا ويقاتلهم قتالاً شديداً ويصف الطبري الوضع في كتابه قائلاً : فلما وجد الروم أن أبا عبيدة غير مقلع عنهم ولم يجدوا لهم طاقة بحربه وحصاره قالوا له نصالحك على مثل ما صالح عليه مدن الشام من أداء الجزية والخراج، على أن يكن تسليم المدينة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فقبل أبو عبيدة ذلك.

كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب فدعا عمر كبار المسلمين إليه، وقرأ عليهم كتاب ابي عبيدة، فقال عثمان بن عفان إن الله قد أذل الروم، وأخرجهم من الشام، ونصر المسلمين عليهم، وقد حاصر أصحابنا مدينة إيلياء وضيقوا عليهم فإن أنت أقمت ولم تسر إليهم رأوا أنك بأمرهم مستخف ولقتالهم مستحقر، فلا يلبثون إلا اليسير حتى ينزلوا على الصغار ويعطون الجزية.

وقال علي بن أبي طالب عندي غير هذا الرأي وأنا أبديه لك، فقال عمر وما هو يا أبا الحسن ؟ فرد علي قائلاً : إن القوم قد سألوك، وفي سؤالهم ذلك فتح للمسلمين، وقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، وإني أرى إن سرت إليهم فتح الله هذه المدينة على يديك فخرج عمر من المدينة قاصداً بيت المقدس بعد أن استخلف على المدينة علي بن أبي طالب.

فكان أول عمل قام به الخليفة عمر بن الخطاب لدى وصوله إلى بيت المقدس هو أن أعطى أهلها العهد التاريخي المعروف بالعهدة العمرية.

وبعد أن تم لعمر بن الخطاب فتح بيت المقدس، أول عمل قام به هو زيارة كنيسة القيامة فحان وقت الصلاة، فاشار عليه البطريرك صفرونيوس أن يصلي في داخلها: قائلاً مكانك صل، لكن عمر أبى وخرج

من الكنيسة وصلى في مكان قريب منها لجهة الجنوب، وبعد أن أتم صلاته قال للبطريرك : آذن لي أيها الشيخ، أنني لو أقمت الصلاة في كنيسة القيامة لوضع المسلمون عليها الأيدي من بعدي في حجة إقامة الصلاة فيها، وإني لا أمهد السبيل لحرمانكم منها وأنتم لها أحق وأولى، ثم طلب من البطريرك أن يريه مكان الهيكل، فوجد المكان مهجوراً إلا من بعض الآثار البالية لمبان قديمة يرجع عهدها إلى أزمنة بعيدة، ولم يكن هناك أي نواع من أنواع البناء وإنما كان المكان مغطى بالأقذار لأنهم كانوا قد اتخذوا موضعاً لجمع قمامات المدينة، فأخذ عمر يعمل على رفعها من مكانها ويلقيها في الأودية ثم اقتدى به قادة المسلمين ورؤساء الجند حتى طهروا المكان، ثم خط بها محراباً من جهة الشرق وهو موضع مسجده فتقدم وصلى هو وصحبه.

بعد أن من الله على المسلمين بفتح بيت المقدس وبسط السيادة الفعلية على المدينة، شرع الخليفة عمر فى بناء أول مسجد في المدينة عرف فى التاريخ باسم مسجد عمر وهناك خلاف بين المؤرخين في تحديد الموقع الذي بنى عليه المسجد في ساحة الحرم القدسي فقد ذكرت بعض الروايات أنه بني في موقع الصخرة أو قريبا منه، لكن معظم الدلائل تشير إلى أنه بني في موقع المسجد الأقصى الحالي.

فقد قال المؤرخ كلير مونت جانو أن المسجد الذي بناه عمر كان في نفس الموضع الذي يقوم عليه المسجد الأقصى في يومنا هذا كما قال الأستاذ كرزويل أن المسجد الأقصى قد بناه عبدالملك بن مروان مكان مسجد الخليفة عمر.

كما وصلت من القرن الأول للهجرة رواية شاهد عيان وصف المسجد باقتضاب وهو المطران أركولفوس الذي زار القدس في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 51هـ / 670م وقال إن المسجد كان مبنيًا من ألواح الخشب وجذوع الأشجار وكان بناؤه بسيطاً ومربع الشكل ويتسع لثلاثة آلاف من المصلين.

ولما كانت المساجد في صدر الإسلام تبنى من الخشب واللبن ومن بعض المواد الأخرى التي لا تتحمل البقاء كثيرًا لذلك لم يبق أي أثر للمسجد الذي بناه الخليفة عمر، وقد زالت معالمه تماماً منذ القرن الأول للهجرة وبدخول الإسلام والمسلمين لمدينة القدس تغير الطابع الحضاري للمدينة بشيوع العقيدة الإسلامية واللغة العربية فيها، وحل السلام والأمن محل الفوضى ، ويذكر الواقدي في كتابه فتوح الشام أن المدة التي أقام بها عمر بن الخطاب في بيت المقدس كانت عشرة أيام ودخل ساحة الحرم القدسي الشريف، وكانت أرضاً مهجورة لا أثر فيها لعبادة، حولها الروم

إلى مزبلة، نكاية في اليهود الذين تعاونوا مع الفرس حين احتلوا فلسطين، فراح أمير المؤمنين ينظف المكان بثوبه، ويكنس ما فيه بيده، وأمر بإقامة مسجد بسيط هناك، جدده بعض أمراء المسلمين فيما بعد، وهو ما نطلق عليه الآن اسم المسجد الأقصى وهو جزء من الحرم القدسي الشريف.

عمرو بن العاص وجيشه والصراع على القدس

هناك أشخاص آخرون كان لهم دور كبير في هذا الفتح، وحق لعمر أن ينسب الفتح إليه، فهو الأمير الذي كان يحشد الجيوش للقتال، ويختار لها القادة والجهات التي سيتوجهون إليها، ويناقشهم في خطط الحرب وتدابيرها، كما أنه قدم من مدينة رسول الله إلى بيت المقدس وتسلم مفاتيح المدينة المباركة لكن ذلك لا يلغي أدوار عظماء آخرين شاركوا في هذا الفتح مباشرة، وأدت جهودهم العسكرية الجبارة إلى اندحار الروم، واضطرار أهل بيت المقدس إلى التسليم للمسلمين، وعلى رأس هؤلاء العظماء: عمرو بن العاص رضي الله عنه الذي أمره أبو بكر الصديق على الجيش المكلف بفتح فلسطين .

خرج عمرو من المدينة ومعه ثلاثة آلاف جندي، فيهم كثير من المهاجرين والأنصار، وظل أبو بكر يمده بالقوات حتى بلغوا سبعة آلاف

وخمسمائة جندي كما أمره الخليفة على من يتطوع معه من قبائل بلى وعذره وسائر قضاعة وما جاورها وسلك عمرو بجيشه طريق المعرفة، ماراً على أيلة، ثم إلى فلسطين بعد أن ودعه الخليفة وأوصاه.

وفي اليرموك سنة 13 هـ، أو سنة 15هـ، على خلاف بين المؤرخين كان عمرو بقواته أحد الأضلاع المهمة التي قاتلت الروم حتى النصر، وهو الذي بشر المسلمين بهذه النتيجة من أول المعركة، حيث نزل الرومان في مكان ضيق يسمى الواقوصة على ضفة نهر اليرموك، واتخذوا وادي النهر وهو معبر صعب بين جبلين خندقا يحتمون به، فقال عمرو بن العاص : أبشروا أيها الناس، قد حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير.

كذلك عاون جيش عمرو إخوانهم في جيش شرحبيل بن حسنة في فتح بيسان وكانت ضمن فتوح الأردن لتحرير البشرية من تسلط القياصرة.

وفي معركة أجنادين بلدة وبيت جبرين من أرض فلسطين قاد عمرو بن العاص جموع المسلمين حتى انتصروا، بعد أن ذهب بنفسه إلى الأرطبون قائد الروم متنكراً في صورة رسول روى الطبري قائلاً : نزل عمرو وشرحبيل على أهل بيسان، فافتتحاها وصالحا أهل الأردن، واجتمع عسكر الروم بغزة وأجنادين وبيسان، وسار عمرو وشرحبيل إلى

الأرطبون ومن معه وهو بأجنادين، واستخلف على الأردن أبا الأعور، فنزل بالأرطبون ومعه الروم، وكان الأرطبون أدهى الروم وأبعدها غوراً وأنكاها فعلاً وتتابعت الأمداد من عند عمر إلى عمرو.

وبعد أن يروي قصة ذهاب عمرو بنفسه متخفياً كرسول إلى الأرطبون، لمعرفة تحصيناته وسماع كلامه بنفسه، وخداعه له بذكاء وفطنة يقول الطبري في روايته : فخرج عمرو من عنده، ورأى أن لا يعود لمثلها، وعلم الرومي أنها خدعة خدعه بها، فقال : خدعني الرجل، هذا أدهى الخلف! وبلغت خديعته عمر بن الخطاب فقال : لله در عمرو !! وعرف عمرو مأخذه فلقيه، فاقتتلوا بأدجنادين قتالاً شديداً كقتال اليرموك، حتى كثرت القتلى بينهم، وانهزم أرطبون إلى إيلياء القدس، ونزل عمرو أجنادين،وأفرج المسلمون الذين يحاصرون بيت المقدس لأرطبون، فدخل إيلياء ومهما يكن، فإن سنة 15هـ لم تأت إلا وقد أصبحت كفة القوات الإسلامية في فلسطين راجحة، حيث انكسر الجانب الأعظم من قوات الأمير الرومي لفلسطين الأرطبون وأصبح الفريقان يستعدان لجولة أخرى ساخنة حول إيلياء القدس.

الصراع على القدس:

في معركة أجنادين حشد الروم في القدس والرملة حشوداً عسكرية كبيرة، لحماية هذين الموضعين المهمين، وفتح جبهات قتال عدة يتشتت المسلمون بينها وأدرك المسلمون خطورة هذا عليهم، فأرسل عمرو بن العاص قوات تشغل روم إيلياء القدس عن المشاركة في الحرب، وقوات أخرى إلى الرملة لنفس الهدف، كما شغل معاوية بن أبي سفيان روم قيسارية عن مساندة الأرطبون ونجحت هذه الخطة في حماية ظهور المسلمين، ومنع الإمدادات عن الأرطبون وقواته الكبيرة أصلاً، فجاء النصر المبين للمسلمين .

وبعد أجنادين اتجهت الأنظار إلى بيت المقدس مباشرة، لكن عمرو بن العاص لم يشأ أن يتجه إليها إلا بعد أن يفتح ما حولها من المدن أولاً ولعله أراد بذلك أن يهزم الروم في جهات فلسطين الأخرى، حتى تكون هناك معركة فاصلة واحدة، بدلاً من أن تكثر الجيوب التي تتجمع فيها فلول المهزومين، وتكلف المسلمين كثيراً كذلك كسب عمرو بهذا التمهيد لفتح القدس والرملة، أنه جعل الروم فيهما كأنهم في جزر منعزلة، لا تجد من يعينها بجند، أو يمدها بسلاح.

افتتح جيش عمرو في هذا التمهيد مدناً كثيرة، منها : يافا ورفح وغزة وسبسطية ونابلس ولد وتبنى وعمواس وبيت جبرين ومرج عيون وجاء الدور على الجولة الساخنة حول القدس وقد انفسح المجال أمام المسلمين، وسيطروا على أكثر فلسطين، ودانت لهم سوريا، وضاقت السبل أمام الروم، وانحصروا في الرملة وبيت المقدس، كما ضاق أهل القدس ذوو الأصول العربية القديمة مع خليط من الروم واليونانيين ضاقوا بأمر الحرب، فراسلوا المسلمين على أن يأتي أمير المؤمنين عمر بنفسه لتسلم بيت المقدس.

القدس في عهد عثمان وعلى:10

تولى عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة في الأيام الأولى من سنة 24 للهجرة، وثبت معاوية بن أبي سفيان في ولايته بالشام، فظلت القدس تحت إدارة معاوية طوال عهد أمير المؤمنين عثمان ولم يتأكد وجود أعمال محددة لعثمان في القدس، غير أن المقدسي الجغرافي الشهير قال عن سلوان : هي محلة في ربض مدينة بيت المقدس، تحتها عين عذبة، تسقى جناناً عظيمة وقفها عثمان بن عفان رضي الله عنه على ضعفاء البلد، تحتها بئر أيوب مع أن المقدسي يورد كلامه السابق بطريقة توحي بالوجود الفعلي لهذه الجنان في عهده، إلا أن ياقوت الحموي يقول :

ليس من هذا الوصف اليوم شيء، لأن عين سلوان محلة في وادي جهنم في ظاهر بيت المقدس لا عمارة عندها ألبتة، إلا أن يكون مسجدا أو ما يشابهه، وليس هناك جنان ولا ربض، ولعل هذا كان قديماً .

ووجود مثل هذه الحدائق ليس مستبعداً،خاصة أن المقدسي كما يسجل ياقوت نفسه : أعرف ببلده، وإن كان قد تغيرت بعد بعض معالمها.

وأما علي بن أبي طالب، فلم يتيسر له أن يحكم الشام في خلافته، للنزاع الشهير بينه وبين معاوية بن أبي سفيان، ولا ندري صحة هذا القول المنسوب إلى علي ـ رضي الله عنه ـ نعم المسكن عند ظهور الفتن بيت المقدس، القائم فيه كالمجاهد في سبيل الله، وليأتين على الناس زمان يقول أحدهم : ليتني تبنة في لبنة من لبنات بيت المقدس أحب الشام إلى الله تعالى بيت المقدس، وأحب جبالها إليه الصخرة، وهي آخر الأرض خراباً بأربعين عاماً.

ولعل أبا عمرو الشيباني لاحظ تقلب الأحوال منذ عهد أمير المؤمنين على إلى أيام عبد الملك بن مروان،وعدم اجتماع المسجد الحرام والمسجد الأقصى في يد أمير واحد، فأطلق هذه العبارة القاسية : ليس يعد من الخلفاء إلا من ملك المسجدين : المسجد الحرام، ومسجد بيت المقدس الشريف.

كان الصحابة رضي الله عنهم زينة الجيوش الفاتحة أيام أبي بكر وعمر وعثمان، وقد حرص القادة على احترامهم وتكريمهم، واهتموا بوجودهم ضمن قواتهم، فقد كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد وهو بالعراق أن يخرج في نصف جيشه إلى الشام، وأن يخلّف على النصف الباقي المثنى بن حارثة، وقال أبو بكر لخالد: لا تأخذن نجداً أي شجاعاً مقداماً إلا خلّفت له نجداً، فإذا فتح الله عليكم فارددهم إلى العراق وأنت معهم، ثم أنت على عملك وأحضر خالد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذهم لنفسه، وترك للمثنى أعدادهم من أهل الشجاعة ممن لم يكن له صحبة، ثم قسم الجند نصفين، فقال المثنى: والله لا أقيم إلا على إنفاذ أمر أبي بكر كله في استصحاب نصف الصحابة أو بعض النصف، وبالله ما أرجو النصر إلا بهم، فأنى تعريني منهم!! فلما رأى خالد ذلك بعدما تلكأ عليه عوَّضه منهم حتى رضي.

وقد سعدت القدس بصلة بعض الصحابة بها، وسعدوا هم كذلك بهذه الصلة، فمنهم من كان في صفوف جيش عمرو الذي حاصرها، ومنهم من رافق أمير المؤمنين عمر حين دخلها فاتحاً، ومنهم من شهد على كتاب الصلح الذي كتبه عمر بين المسلمين وبين أهل بيت المقدس، ومنهم من زارها وأهلّ بالعمرة والحج منها، ومنهم من أقام ومات ودُفن في ثراها.

وكانت الشام مركز المؤيدين للسياسة الأموية، فقد طالت الصلة بين أهل الشام وبين معاوية بن أبي سفيان رأس دولة بني أمية ورأوا فيه سياسياً وقائداً ماهراً، واختار الأمويون عاصمتهم في قلب الشام دمشق، وأولوا الشام ومدنها وأهلها اهتماماً خاصاً.

لقد تحكم عاملان كبيران في سياسة بني أمية نحو القدس، وهما: مكانة المدينة ومسجدِها المبارك، ثم قربها من دمشق مركز الدولة الأموية وعاصمتها.

بدأ معاوية بن أبي سفيان بأخذ البيعة من الناس على الخلافة في بيت المقدس، ولعله أراد بأخذها هناك أن يؤكد شرعية هذه البيعة، حيث يأخذها في مكان طاهر مبارك، وسار على هذه الخطوة خليفتان آخران من بني أمية وهما: الوليد بن عبد الملك وأخوه سليمان.

وإذا كان عبد الملك بن مروان وابنه الوليد قد منحا الحرم القدسي اهتماماً خاصاً، وشيدا المسجدين المباركين: مسجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى الذي بناه عمر بن الخطاب قبلهما فإن سليمان بن عبد الملك مكث زمناً أميراً على فلسطين، وكان يحب الجلوس تحت قبة السلسلة بأرض الحرم القدسي الشريف، ولم يكتف بأخذ البيعة من الناس على سطح صخرة بيت المقدس والناسُ من حوله، والمال الوفير وكُتّاب

الدواوين إلى جانبه، بل كاد أن يتخذ مدينة القدس أو الرملة عاصمة لمُلكه.

إن وصف مدينة القدس في زمان بني أمية يكشف عن اهتمامهم بها وبأسوارها وبناياتها، فقد كان للقدس يومئذ سور، وكان على ذلك السور أربعة وثمانون برجاً، وله ستة أبواب، ثلاثة منها فقط يدخل الناس منها ويخرجون: واحد غربي المدينة، والثاني شرقيها، والثالث في الشمال.

وكان يؤم المدينة في اليوم الخامس عشر من شهر سبتمبر من كل سنة، جماهير غفيرة من مختلف الأجناس والأديان بقصد التجارة، ويقضي هؤلاء فيها بضعة أيام وكان فيها مسجد مربع الأضلاع، بُني من حجارة وأعمدة ضخمة نقلت من الأطلال المجاورة ويتسع لثلاثة آلاف من المصلين وكان جبل الزيتون مغطى بأشجار العنب والزيتون وسكان بيت المقدس يومئذ يأتون بالأخشاب التي يحتاجون إليها من أجل البناء والوقود، تنقل على الجمال من غابة كثيفة واقعة على بعد ثلاثة أميال من الخليل إلى الشمال.

القدس في عهد العباسيين

بعد نجاح العباسيين في انتزاع الحكم من الأمويين سنة 132هـ / 750م، اتخذوا مدينة بغداد عاصمة لخلافتهم، ومنذ ذلك التاريخ خضعت فلسطين لحكمهم ومن ضمنها مدينة بيت المقدس.

لكن بدايات الحكم العباسي في جنوب بلاد الشام اتسمت بالعنف تجاه زعماء الأمويين، وتولاها عبد الله أبو العباس بنفسه،بهدف استئصال البيت الأموي وأهله وأنصاره لئلا يظهر منهم أي مطالب بالحكم فيما بعد، فظل أهل هذه البلاد يكرهون الحكم الجديد ويعادونه وهكذا بعد أن كانت منطقة جنوب الشام تعتبر الإقليم الأول في العهد الأموي والأكثر حظوة ورعاية لم تعد كذلك في عهد العباسيين، إذ لم تخسر مركزها وأهميتها فحسب بل صارت ولاية ثانوية ويشك العباسيون في ولائها، ولهذا لم يعطوا حكمها إلا لأمراء البيت العباسي،وغالباً ما كان يضاف حكم فلسطين ومن ضمنها بيت المقدس والأردن إلى دمشق أو إلى مصر.

لكن على الرغم من الموقف المتشدد، إلا أن بعض خلفائهم عملوا على إيلاء مدينة القدس وما تحتويه من مقدسات عناية خاصة دون غيرها من المدن الشامية، وهؤلاء الخلفاء هم :

1 - أبو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين وقد اهتم بمدينة بيت المقدس والحرم القدسي الشريف اهتماماً بالغاً حيث قام بزيارة المدينة

المقدسة مرتين إحداهما سنة 140هـ والثانية سنة 154هـ حسب ما ذكره المسعودي في كتابه أنه في سنة إحدى وأربعين ومائة، شخص المنصور إلى بيت المقدس، فصلى فيه لنذر كان عليه وانصرف.

واهتم الخليفة أبو جعفر المنصور اهتماماً خاصاً بتعمير المسجد الأقصى، خاصة بعد حدوث الزلزلة الأولى في عهده وهدمت بعض أقسامه حيث يقول المقدسي وأما المسجد الأقصى فهو على قرنة البلد الشرقي نحو القبلة وقد بنى عليه عبد الملك بحجار صغار حسان وشرفوه وكان أحسن من جامع دمشق، ولكن جاءت زلزلة في دولة بني العباس، فطرحت المغطى إلا ما حول المحراب، فلما بلغ الخليفة خبره قيل له لا يفي برده إلى ما كان عليه بيت مال المسلمين، فكتب إلى أمراء الأطراف وسائر القواد أن يبني كل واحد منهم رواقا فبنوه أوثق وأغلظ صناعة مما كان.

في حين يذكر مجير الدين الحنبلي عن عبد الرحمن بن محمد أنه قال : إن الأبواب كلها ملبسة بالصفائح الذهبية والفضية في خلافة عبد الملك بن مروان، فلما قدم أبو جعفر المنصور العباسي كان شرقي المسجد وغربيه قد وقعا، فقيل له: يا أمير المؤمنين قد وقع شرقي المسجد

وغربيه من الرجفة في سنة ثلاثين ومائة ولو أمرت ببناء هذا المسجد وعمارته.

فقال: ما عندي شيء من المال، ثم أمر بقلع الصفائح الذهبية والفضية التي كانت على الأبواب فقلعت وضربت دنانير ودراهم وأنفقت عليه حتى فرغ.

وعند تولى المهدي خلافة المسلمين وقع زلزال آخر في مدينة بيت المقدس أدى إلى تهدم بناء المسجد الأقصى الذي أقامه أبو جعفر المنصور، كما تسبب هذا الزلزال في انقطاع المصلين عن ارتياد المسجد للصلاة فيه لمدة طويلة، فأمر المهدي بإعادة بنائه، وقد ذكر الحنبلي ذلك في كتابه قائلا : رث هذا المسجد وطال وخلا من الرجال، أنقصوا من طوله، وزيدوا من عرضه فتم البناء في خلافته سنة 163هـ / 780م أما المقدسي فقد قال : بنى المسجد هذه المرة بعناية فائقة وأنفقت عليه أموال طائلة، وكان البناء يتكون من رواق أوسط كبير يقوم على أعمدة من رخام، وتكتنفه من كل جانب سبعة أروقة موازية له وأقل منه ارتفاعاً ومن جهة أخرى علق محمد كرد على ذلك في كتابه قائلاً : إن عمارة المسجد الأقصى قد ازدادت على عهد المهدي بما أدخله عليه من

تحسينات، حيث أقام به قبة أخذت زينتها من الذهب والأحجار الكريمة الملونة وقد قام المهدي بزيارة للمدينة المقدسة سنة 163هـ.

وفى عهد المأمون بن المهدي أصاب قبة الصخرة شيء من الخراب، فلما زار الخليفة المأمون بيت المقدس سنة 215هـ / 830م أمر بترميمها، فتم ذلك وانتهى سنة 216هـ / 831م، لكن الصناع أرادوا أن يتزلفوا له، فاستبدلوا اسم الخليفة عبد الملك بن مروان بكتابة اسمه على الفسيفساء الموجود على القبة،ولكنهم غفلوا عن تغيير السنة التي حدث فيها هذا الترميم.

ومن عمليات الترميم التي أجريت على قبة الصخرة في عهد العباسيين، ما أمرت به أم الخليفة المقتدر بالله حوالي سنة 301هـ / 913م بإصلاح قبة الصخرة وأمرت بتزويد كل باب من أبوابها بمدخل خشبي فخم وفي ربيع سنة 216هـ / 831م أمر الخليفة المأمون ببناء الأبواب الشرقية والشمالية للحرم القدسي الشريف كما أجرى البطريرك في القدس في عهده بعض الإصلاحات في القبر المقدس وفي عهده زار الإمام الأعظم محمد بن إدريس الشافعي بيت المقدس، كما زارها عدد كبير من العلماء وأهل الفضل، وبلغ العلم في عهده مبلغاً عظيماً.

وما أن توفي الخليفة المأمون حتى أخذت حالات التمرد والثورات تشتعل ضد نظام الحكم في مناطق متعددة من الدولة العباسية المترامية الأطراف من أهمها جنوب بلاد الشام ومصر وفي الوقت الذي كان مركز الخلافة في العراق يعاني من الفوضى العسكرية وضعف السلطة المركزية واضطراب الأوضاع الاقتصادية العامة، كانت منطقة جنوب بلاد الشام ومصر تدخل في عهد من النشاط الاقتصادي والقدرة السياسية التي تمثلت في ظهور أسر حاكمة محلية مستقلة كآل طولون ثم آل الإخشيد.

وركزت سياسة العباسيين على أن تظل الدولة الإسلامية الكبيرة دولة واحدة، يحكمها خليفة واحد ومع أنهم حتى منذ البداية لم ينجحوا في هذا تماماً، إلا أن الشام أخذت من الخلفاء الأول للدولة العباسية اهتماماً كبيراً ويبدو أن زيارة القدس حينئذ كانت قد صارت عملاً معتاداً عند العامة والخاصة،للمنزلة الخاصة لهذا البلد، والأبنية الرائعة التي أقامها الأمويون هناك، فكان الزائر يقصد بعمله أجر الصلاة في المسجد الأقصى أو الإهلال من عنده بحج وعمرة، وزيارة أبنية الأمويين الجميلة.

ويحكي التاريخ أن الخليفة أبا جعفر المنصور خرج سنة مائة وأربعين حاجاً إلى بيت الله الحرام، ثم توجه إلى المدينة بعدما أدى فريضة الحج،

ومنها توجه إلى بيت المقدس، فصلى في مسجدها، وفي هذه الزيارة عاين المنصور الدمار الكبير الذي أصاب المسجد الأقصى، بسبب زلزال تعرضت له المنطقة سنة مائة وثلاثين، وتسبب في وفاة أولاد الصحابي شداد بن أوس رضي الله عنه،وأثر في بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة، في وقت كان الصراع فيه محتدماً بين العباسيين والأمويين، ولم يكن هناك من الاستقرار ما يسمح بترميم المسجد العظيم، فأمر المنصور بذلك بعد الزيارة والمشاهدة.

وفي سنة أربع وخمسين ومائة خرج المنصور من جديد إلى الشام، وبعد أربع عشرة سنة من ذلك خرج ابنه المهدي من العراق يريد الحج، وزار بيت المقدسن فأقام بها أياماً وانصرف وفي هذه الزيارة القصيرة طالع المهدي أحوال بيت المقدس عن قرب، وأمر بإسكان نصارى القدس في حي واحد بها، كما نفى بطريرك بيت المقدس إلياس الثالث إلى بلاد فارس، بسبب عصبيته البالغة.

والمؤرخون يروون أنه لما دخل المهدي دمشق يريد زيارة القدس، نظر إلى جامع دمشق فقال لكاتبه أبي عبيد الله الأشعري : سبقنا بنو أمية بثلاث:بهذا المسجد الذي لا أعلم على وجه الأرض مثله، وبنبل الموالي، وبعمر بن عبد العزيز، لا يكون والله فينا مثله أبدا. ثم لما أتى بيت

المقدس فنظر إلى قبة الصخرة وكان عبد الملك بن مروان هو الذي بناها قال لكاتبه: وهذه رابعة وحين جاء الرشيد المهدي إلى سدة الخلافة بدا شديد التسامح، فوافق للإمبراطور شارلمان على ترميم كنائس بيت المقدس، وتعهد بحماية الحجيج النصارى إلى بيت المقدس ومنح الرشيد وفداً قدم إليه من أوروبا من عند شارلمان مفاتيح كنيسة القيامة أكبر أثر نصراني في القدس فكان هذا علامة أخرى على التسامح الذي ميز الحكم الإسلامي عموماً في تعامله مع أهل الذمة.

أما المأمون بن الرشيد، فقد تفقد مدن الشام، وزار القدس، وصلى في مسجدها، وتجول بين أرجاء المدينة متابعا أعمال الترميم والبناء. وأرسل إلى المسجد الأقصى باباً زين غاية الزينة، وهو من الحسن بحيث تظن أنه من ذهب، وقد نقش بالفضة وكتب عليه اسم الخليفة

القدس في العصر الفاطمي

في سنة 359هـ بدأت القدس تاريخها الفاطمي، وشغل هذا التاريخ أكثر من قرن من الزمان، أنهته الهجمة الصليبية الشرسة، التي أحدثت تطورات عميقة في العالم الإسلامي، أطيح أثناءها بالدولة الفاطمية تماماً وقد سعى الفاطميون إلى دمج القدس في نطاق دعوتهم إلى المذهب الشيعي الباطني للدولة فبثوا فيها الدعاة وأنشئوا فيها داراً علمية لتعليم

مذهبهم ورعوا المسجد الأقصى، واهتموا بعمارته وعلاجه مما يلحقه من أضرار من جراء الزلازل وغيرها.

وقد وصف المدينة في هذا العصر في أيام العزيز بالله الفاطمي سنة 380هـ الرحالة شمس الدين المقدسي، فكال لها الثناء والمدح كيلاً، وكشف عن بعض العيوب فيها، فقال : بيت المقدس ليس في مدائن الكور أكبر منها، وقصبات كثيرة أصغر منها كإصطخر وقاين والفرما، لا شديدة البرد وليس بها حر، وقل ما يقع بها ثلج وسألني القاضي أبو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء فقلت : سجسج لا حر ولا برد شديد قال : هذه صفة الجنة.

بنيانهم حجر لا ترى أحسن منه، ولا أتقن من بنائها، ولا أعف من أهلها، ولا أطيب من العيش بها، ولا أنظف من أسواقها، ولا أكبر من مسجدها، ولا أكثر من مشاهدها، عنبها خطير، وليس لمعنقتها نظير، وفيها كل حاذق وطبيب، وإليها قلب كل لبيب، ولا تخلو كل يوم من غريب.

ثم حكى قائلاً : كنت يوماً في مجلس القاضي المختار أبى يحيى بن بهرام بالبصرة، فجرى ذكر مصر، إلى أن سئلت : أي بلد أجل ؟ قلت : بلدنا قيل : فأيها أطيب ؟ قلت : بلدنا قيل : فأيها أفضل ؟ قلت : بلدنا قيل :

فأيها أحسن ؟ قلت : بلدنا قيل : فأيها أكثر خيرات ؟ قلت : بلدنا قيل فأيها أكبر: قلت بلدنا فتعجب أهل المجلس من ذلك، وقيل أنت رجل محصل، وقد ادعيت ما لا يقبل منك قلت : أما قولي أجل، فلأنها بلدة جمعت الدنيا والآخرة، فمن كان من أبناء الدنيا وأراد الآخرة وجد سوقها، ومن كان من أبناء الآخرة فدعته نفسه إلى نعمة الدنيا وجدها، وأما طيب الهواء فإنه لا سمَّ لبردها، ولا أذى لحرها، وأما الحسن فلا ترى أحسن من بنيانها ولا أنظف منها ولا أنزه من مسجدها، وأما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الأغوار والسهل والجبال والأشياء المتضادة كالأترج واللوز والرطب والجوز والتين والموز، وأما الفضل فلأنها عرصة القيامة ومنها المحشر وإليها المنشر، وإنما فضلت مكة والمدينة بالكعبة والنبي صلى الله عليه وسلم ويوم القيامة تزفان إليها، فتحوى الفضل كله، وأما الكبر فالخلائق كلهم يحشرون إليها، فأي ارض أوسع منها ؟ فاستحسنوا ذلك وأقروا به.

القدس في عهد الفاطميين

قامت دولة الفاطميين في تونس في مدينة اسسها عبدالله المهدي واسماها المهدية سنة 296هـ / 909م وكان مطمحهم الكبير في احتلال مصر،وتم لهم ذلك سنة 359هـ969م على يد القائد جوهر الصقلي الذي

بنى القاهرة، واتخذها الخليفة الفاطمي المعز لدين الله عاصمة لخلافته سنة 362هـ /973م.

لكن اهتمام الفاطميين لم يقتصر على مصر وحدها، وإنما كانوا يرون في بلاد الشام امتداداً طبيعياً لمصر ومنفذاً تجارياً لها كما كانوا يرون في ضرورة القضاء على من تبقى من الإخشيديين في جنوب بلاد الشام التي كانت تحت حكمهم وسيطرتهم أمراً ملحاً بعد أن تم لهم القضاء عليهم في مصر فعمل القائد جوهر الصقلي على توجيه حملة في تلك السنة 359هـ/969م لفتح فلسطين والشام فدخلت مدينة بيت المقدس تحت حكم الفاطميين في عهد العزيز بالله الذي خلف المعز لدين الله الفاطمي سنة 365هـ /975م وهو خامس الخلفاء الفاطميين.

ودخلت مدينة بيت المقدس تحت السيادة الفاطمية في عهد العزيز بالله، وقد اتبع سياسة حسنة تجاه سكان مدينة بيت المقدس من النصارى واليهود حيث كان قد تزوج من امرأة مسيحية من الطائفة الملكية وكان يحبها كثيراً فاكتسبت نفوذا عنده، وجعل أخويها في مصاف البطاركة واحداً في الإسكندرية والآخر في القدس كما أقام على فلسطين واليا قبطيا هو أبو اليمن قزمان بن مينا الكاتب.

ولما توفي العزيز بالله خلفه ولده المنصور أبو علي الملقب بالحاكم بأمر الله وفي بداية حكمه كان معتدلاً مع المسيحيين إلا أنه انقلب عليهم وعلى اليهود سنة 398هـ /1007م واتخذ فى حقهم إجراءات قاسية وألزمهم أن يحملوا على ثيابهم علامة تميزهم عن المسلمين، وأمر بشد الزنانير ولبس العمائم السود، وألغى أعيادهم وحرم عليهم ضرب الأجراس، وأمر بأن يحمل اليهودي جرساً إذا ما دخل الحمام أما المسيحي فيحمل على صدره صليباً من الخشب، وحرم على المسيحيين واليهود ركوب الخيل وسمح لهم بركوب الحمير أو البغال مشترطاً أن تكون سروجها من الخشب.

وفي سنة 399هـ /1008م أمر الحاكم بأمر الله بهدم الكنائس ومنها كنيسة القيامة وقد ذكرت الرواية الكنسية المعاصرة أن الحاكم أصدر أمره بهدم كنيسة القيامة في صورة موجزة إلى والي الرملة بارختكين بقوله : خرج أمر الإمامة إليك بهدم قيامة فاجعل سماها أرضا وطولها عرضاً فقام بارختكين بتنفيذ الأمر بهدم كنيسة القيامة وسائر ما اشتملت عليه حدودها سنة 400هـ /1009م ويعلل المؤرخون الأسباب التي دعت الحاكم بأمر الله لاتخاذ مثل هذا الأمر نحو أهل الذمة للأسباب التالية 1 ـ أنه في تلك الفترة الزمنية كانت هناك حروب بين المسلمين والروم، وقام

الروم بتخريب وحرق جوامع المسلمين، فانتقم الحاكم بأمر الله منهم بحرق الكنائس ومنها كنيسة القيامة.

2 ـ في عهده عمت شائعة أن القيامة ستقوم في يوم معين، فتقاطرت على مدينة القدس جموع غفيرة من الأوروبيين الذي صدقوا الشائعة ورغبوا في الموت بجوار قبر المسيح فلما مر هذا اليوم دون أن يحدث شيء غضب الحاكم بأمر الله لاعتقاده بأن الشائعة كان القصد منها دفع أعداداً هائلة من المسيحيين إلى المدينة المقدسة مما يهدد أمنها.

3 ـ ويقال أيضاً إن الوزراء والكتب الذين انتدبهم لحكم المناطق من النصارى غالوا في الاسئثار بسلطاتهم واستغلالهم للوظائف الحكومية الهامة وحرموا ذلك على المسلمين، كما قاموا باختلاس الأموال العامة مما أثار غضبه.

ويبدو أن الشدة التي اتبعها الحاكم بأمر الله مع النصارى واليهود قد أحدثت أثرًا سيئًا في البلاد، كما جعل النصارى واليهود يفرون من البلاد إلى خارجها، إلا أن الحاكم بأمر الله ما لبث أن عاد عن سياسته تلك ومنح المسيحيين واليهود حرية دينية كاملة، وسمح لهم ببناء ما تهدم من مقدساتهم.

وفي عهده في عام 407هـ /1015م حدث زلزال في مدينة بيت المقدس سقطت على إثره بعض أجزاء من قبة الصخرة وقسم كبير من سور الحرم.

وفي عام 411هـ /1020م اختفى الحاكم بأمر الله، وقيل إن أخته ست الملك أسهمت في قتله مع قائد جيشه على جبل المقطم في مصر، وبعد موته تولت أخته مقاليد الحكم مؤقتاً ثم نادت بابنه علي أبي الحسن الملقب بالظاهر خليفة على المسلمين.

وبعد تولي الظاهر حكم البلاد، جرى في عهده سنة 413هـ /1022م ترميم قبة مسجد الصخرة وكانت مغطاة بالرصاص من الخارج وبالفسيفساء من الداخل، فتم تعميرها على يد علي بن أحمد المنقوش اسمه على الأخشاب الملصقة في صدع الدهليز في رقبة القبة.

وسنة 418هـ /1027م عقد الظاهر هدنة مع إمبراطور القسطنطينية الثامن، كان من شروطها أن يطلق الإمبراطور سراح أسرى المسلمين من عنده مقابل أن يمنحه الظاهر الإذن بتجديد عمارة كنيسة القيامة وتعيين بطريرك على القدس، إلا أن فقر المسيحيين المحليين حال دون تمكنهم من إتمام بناء الكنيسة.

وفي عهده تم ترميم سور القدس وأخذت الحجارة من العمائر المتهدمة في المدينة نتيجة الزلزال الذي حدث في عهد والده الحاكم بأمر الله وفي سنة 425هـ /1034م وقع زلزال آخر في مدينة بيت المقدس كان من نتائجه أن خرب المسجد الأقصى الذي عمره المهدي بن المنصور العباسي خرابا ظاهرا، فعمره الخليفة الظاهر في السنة التالية مبقياً ما أمكن إبقاؤه من البناء السابق.

في زمن الخليفة المستنصر بالله اتسع سلطان الفاطميين وامتد من المغرب العربي ومصر إلى بلاد خراسان وفارس، ثم عاد ليتضائل من جديد وفي عهده تجددت المعاهدة بين الفاطميين والبيزنطيين، فأجاز المستنصر للإمبراطور ميخائيل الرابع إعادة بناء كنيسة القيامة شريطة أن يسمح له ببناء مسجدين للمسلمين في القسطنطينية، وانتهى بناء الكنيسة سنة 1048م.

كما ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه قائلاً : في سنة 452هـ سقط تنور قبة الصخرة وفيه خمسمائة قنديل، فخاف المقيمون به من المسلمين وقالوا : ليكونن في الإسلام حادث عظيم فكان أخذ الفرنجة له وفي سنة 458هـ / 166م أمر الخليفة المستنصر بالله بتحديد الواجهة الشمالية للمسجد الأقصى ويقول الحنبلي أيضاً : 0في سنة 460هـ /

1096م زلزلت الأرض في بيت المقدس، فانشقت صخرة بيت المقدس ثم عادت فالتأمت بقدرة الله وفي سنة 465هـ /1072م استولى على بيت المقدس والرملة أحد زعماء السلاجقة الأتراك وهو أتسز بن أوق الخوارزمي صاحب دمشق، فأقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس وقطعت دعوة الفاطميين.

الصراع الفاطمي السلجوقي على القدس

أوغل البيت الفاطمي في التشييع، وسلك أوعر سبله، وهو التشيع الباطني الذي يأخذ بتأويل الدين، حتى يخرج به عن مقصوده وفي المقابل كان الحكام والولاة السلاجقة متحمسين لمذهب أهل السنة، بل تعصب بعضهم تعصباً شديداً ضد المخالفين له.

وحين تتجاور مثل هاتين الدولتين، لابد أن تتنافسا وتتصادما عند مواضع النفوذ والتماس، وقد كانت القدس أحد موضوعات الصراع بين الفريقين، حتى استطاع السلاجقة استخلاصها لأنفسهم سنة 463هـ، أي بعد استيلاء الفاطميين عليها بقرن وأربع سنوات ففي هذه السنة سار أتسز بن أوق الخوارزمي أحد قواد الملك ألب أرسلان السلجوقي فدخل الشام،وافتتح الرملة، ثم حاصر بيت المقدس،فاستولى عليها من الفاطميين ، ثم حاصر دمشقن وخرب الكثير من أنحاء الشام.

ولم يستقر أمر الشام بقية القرن الخامس الهجري، بل ظل القلق وروح الصراع مسيطرين على هذه البلاد، فوقعت حلقات أخرى من القتال بين السلاجقة والفاطميين، تخللتها أعمال عنف وقسوة شديدة يقول الذهبي : وفي سنة ثمان وستين وأربعمائة اشتد القحط بالشام، وحاصر أتسز الخوارزمي دمشق، فهرب أميرها الفاطمي المعلي بن حيدرة وكان جباراً عسوفاً وولى بعده رزين الدولة انتصار المصمودي ثم أخذ دمشق من أتسز وأقام الدعوة العباسية، وخافه المصريون الفاطميون ثم قصدهم في سنة تسع وستين، وحاصرهم، ولم يبق إلا أن يتملك فتضرع الخلق عند الواعظ الجوهري، فرحل شبه منهزم، وعصى عليه أهل القدس مدة، ثم أخذها وقتل وفعل كل قبيح، وذبح قاضي القدس والشهود صبراً.

القدس في عهد السلاجقة الأتراك

السلاجقة أصلهم فئة من الأتراك خرجوا في أواخر القرن العاشر الميلادي من سهول تركستان، اعتنقوا دين الإسلام وتحمسوا له، وأولاهم الخلفاء العباسيون حكم الولايات حتى أصبحوا اسياد دويلات مستقلة، فراحوا يحكمون صورياً باسم الخليفة العباسي وفعلياً باسمهم الخاص بدأ حكمهم الفعلي لبلاد العرب بدخول عظيمهم آرطغرل بك مدينة

بغداد سنة 447هـ /1055م وكان في بغداد يومئذ الخليفة العباسي القائم بأمر الله فأبقاه، لكنه قضى على من سواه في الحكم .

نافس السلاجقة الأتراك الفاطميين في بسط السيادة على بلاد الشام حتى تحققت لهم السيطرة على شمال بلاد الشام، في حين كانت الخلافة الفاطمية تفرض سيطرتها على منطقة جنوب بلاد الشام وهي فلسطين وأعمالها وهكذا بدأ الصراع السياسي والتراع العسكري بين السلاجقة الأتراك والفاطميين للسيطرة على فلسطين خاصة مدينة القدس وبعد وفاة آرطغرل بك تولي الملك من بعده ابن أخيه ألب أرسلان للفترة 1063 - 1072م وقد تمكن أحد زعماء التركمان وهو أتسز بن أوق الخوارزمي في عام 464هـ /1072م من فتح الرملة وبيت المقدس وأخذهما من الفاطميين فجعل أتسز الخوارزمي بيت المقدس مركزا لحكمه وأبطل الدعوة للفاطميين وخطب للخليفة العباسي والسلطان السلجوقي.

عمل أتسز الخوارزمي على تعبئة قواته من بيت المقدس للاستيلاء على المدن المجاورة لتوسيع النفوذ السلجوقي في جنوب بلاد الشام، فتم له الاستيلاء على مدينة عكا 468هـ/1076م وحاصر دمشق عدة مرات حتى تم له فتحها في عهد السلطان ملكشاه في ذات العام، فباتت مدينة القدس على عهده صاحبة النفوذ الأقوى في جنوب بلاد الشام ونتيجة

لانتصاراته بدأ أتسز الخوارزمي في التطلع نحو شمال بلاد الشام ولكنه عاد وترك أمرها للسلطان ملكشاه، فتوجه نحو مصر محاولاً ضمها إلى نفوذه لكن حملته سنة 469هـ/1076 أخفقت وتبعته القوات الفاطمية وهو ينسحب حتى الرملة بفلسطي، لكن أهل فلسطين لم يكونوا مرتاحين إليه بسبب تعسفه وهدره الأرواح إضافة إلى أن بلاد الشام ساءت أحوالها الاقتصادية في عهده، مما دفع أهل القدس لانتهاز فرصة هزيمته أمام الفاطمين فثاروا عليه بزعامة القاضي، وحاول أتسز مفاوضتهم ثم قرر محاصرة المدينة واقتحامها فدخلها عنوة وقتل ما يقرب من ثلاثة آلاف شخص من أهلها.

وفي عام 471هـ /1078م قام الفاطميون بمصر بتوجيه حملة عسكرية بقيادة ناصر الدولة الجيوشي للهجوم على فلسطين، فاحتلت القدس ثم تقدمت نحو دمشق حيث كان أتسز الخوارزمي موجوداً، فاتصل بتتش بن ألب أرسلان بحلب مستنجداً به لإنقاذه من الحصار الفاطمي، فتحرك تتش على الفور ودخل دمشق، لكنه ما لبث أن تخلص من أتسز بقتله وانفرد بالحكم، لكن عهد تتش بن أرسلان لم يختلف كثيراً عن عهد سلفه أتسز الخوارزمي إذ لم يأمل أهل فلسطين منه خيراً.

اقطع تتش مدينة القدس وأعمالها إلى أحد قادته وهو أرتق بن أكسك التركماني، وحين توفي أرتق بك سنة 484هـ /1091م تولى الأمر من بعده ولديه أيلغازي وسقمان، ولما قتل تتش صاحب دمشق سنة 488هـ /1095م اقتسم ولداه رضوان ودقاق الحكم وصارت فلسطين تتبع الدقاق، لكن الخلاف نشب بين الأخوين دفع الأفضل بن بدر الجمالي أمير الجيوش فى مصر للتوجه إلى فلسطين ومحاصرة بيت المقدس لمدة أربعين يوماً، فما كان من أهل بيت المقدس إلا أن اتفقوا مع الأفضل على منحهم الأمان، وهكذا استولى الأفضل على القدس بالأمان في شعبان سنة 489هـ/1096م وبقيت مدينة المقدس في أيدي الفاطميين حتى سقوطها فى أيدي الصليبيين سنة 492هـ /1099م.

القدس في عهد المماليك

من أكثر الأمور التي تؤكد على أن مكانة القدس العالية هي عند المسلمين كافة فترة حكم المماليك، فالمماليك من المعروف عنهم أنهم من أجناس شتى، وأمم متفرقة مختلفة العادات والتقاليد، ومع ذلك نجدهم قد اهتموا بالقدس اهتمامهم بالحرم الشريف في مكة،ومع ذلك فإن جهود المماليك، وما أدوا للمسلمين بشكل عام وللقدس بشكل خاص لا تزال مجهولة لكثير من الناس.

موقف المماليك من القدس

المماليك هم طائفة من الأرقاء أو ممن كانوا يؤسرون في الحروب أو يستدعون للخدمة في الجيش وكانوا خليطاً من الأتراك والشراكسة وغيرهم من الأجناس يرجع ظهور المماليك في العالم الإسلامي إلى ما قبل قيام دولتهم بمصر بأمد طويل، وكان أول من استخدمهم الخليفة العباسى المأمون خلال فترة حكمه الممتدة بين السنوات 198هـ/ 813م – 218هـ/ 833م، إذ كان في بلاطه بعض المماليك المعتقين ثم الخليفة العباسي المعتصم بالله الذي استخدم فرقاً من الشباب الأتراك في جيشه لتدعيم سلطانه لقلة ثقته بالعرب ومن ثم أخذ بمبدأ استخدام المماليك ولاة مصر من الطولونيين والإخشيديين والفاطميين ثم الأيوبيين الذين أكثروا من شراء المماليك الترك وألفوا منهم فرقاً عسكرية خاصة.

ولعل اسمهم المماليك الذي ينبئ عن العبودية ويستخدم للتعريف بهم والإشارة إلى عهدهم لا يعطي صورة حقيقية عنهم، ولا يدل على دورهم الكبير في القضاء على بقايا الفرنجة الصليبيين والوقوف في وجه التتار، ولا يُعرف بدورهم الحضاري الظاهر، حيث يعتبر قيام دولة سلاطين المماليك في منتصف القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي بداية مرحلة جديدة لها طابعها الخاص في تاريخ مصر والشام الذي يتصف

بالأمن والاستقرار والثراء والازدهار، خصوصاً بعد سيطرة التتار الوثنيين على بغداد وسقوط الخلافة العباسية فيها، كما أخذت دولة المسلمين في الأندلس في ذلك الوقت بالانحسار سياسيًا وحضاريًا بعد أن اشتدت عليها وطأة الفرنجة.

أحس المماليك منذ البداية أنهم محرجون بسبب أصلهم غير الحر، فضلاً عن أنهم ظهروا على المسرح السياسي في صورة من استولوا على الحكم من سادتهم بني أيوب، لذلك سلك المماليك ثلاثة اتجاهات لمحو هذه الصورة عن الأذهان، التي تركت كلها آثاراً إيجابية ومباشرة في الأوضاع العامة لمدينة القدس بشكل خاص، وهذه الاتجاهات هي:

1- اتخذ المماليك الجهاد أداة لإثبات جدارتهم بالحكم ولحماية المقدسات الإسلامية، مما أدى إلى ثبات الأمن والاستقرار في ظل حكمهم.

2- بإحياء المماليك للخلافة العباسية في القاهرة، أضفوا على الحكم صفة الشرعية،بوصفهم مفوضين بحكم المسلمين من قبل الخلافة العباسية وهي أعلى سلطة شرعية في البلاد.

3- استغل المماليك جزءاً كبيراً من ثرواتهم الضخمة في العناية بالمنشآت الدينية في الأماكن المقدسة خصوصاً في مدينة القدس، مما

زاد من مكانة هذه المدينة المقدسة في عصرهم لدى المسلمين ويقسم العهد المملوكي إلى قسمين:

عهد المماليك الأتراك أو المماليك البحرية: وهم من جند الملك الصالح نجم الدين الأيوبي ويسمون المماليك البحرية لأن الصالح أسكنهم ثكنات في جزيرة الروضة في بحر النيل.

عهد المماليك الشراكسة أو المماليك البرجية:وهم من جند السلطان المنصور قلاوون المملوكي التركي، وكانوا يسكنون في أبراج القلعة في القاهرة فعرفوا بالبرجية.

صلاح الدين يحرر القدس

لم يستسلم المسلمون لاحتلال القدس، فتصدوا لقتال الصليبيين في أكثر من مكان، واستطاع صلاح الدين الأيوبي بعد توحيد المسلمين أن ينتصر على الصليبيين في معركة حطين عام 583 هـ الموافق 1187م، وأن يحرر بعدها القدس صلحاً، حيث سمح للصليبيين بمغادرة المدينة، وانزال الصليب عن قبة الصخرة، وأقام في المسجد الاقصى المنبر الذي عرف باسمه، وأعاد اعمار القدس بانشاء الخنادق والأسوار والأبراج الحربية للدفاع عنها اذا ما تعرضت لأي عدوان.

تعرضت القدس بعد ذلك لحكم الصليبيين مرتين الأولى عندما سلمها

الملك الكامل عام 1229م لملك صقلية فردريك لمدة 11 عاماً حيث استردها الملك الناصر داوود ليعود ليسلمها مرة ثانية للصليبيين لمدة أربع سنوات، إلى أن استردها نهائياً الملك الصالح نجم الدين أيوب عام 1244م.

على إثر تولي الملك عز الدين أيبك عرش مصر 648هـ/ 1250م – 656هـ/ 1258انفصلت الشام عن مصر واستقل بحكمها الأمراء الأيوبيون، فراح الفريقان يقتتلان إلى أن تم الصلح بين الفريقين سنة 651هـ/ 1253م وبموجب هذا الصلح دخلت مدينة القدس تحت الحكم المملوكي لكن السلطان عز الدين أيبك قُتل فخلفه ابنه الصغير نور الدين علي وفي عهد السلطان سيف الدين قطز 607هـ / 1259م – 658هـ / 1260م اجتاحت جحافل التتار بلاد الشام من شمالها إلى جنوبها وشاء الله أن ينقذ بيت المقدس من همجيتهم وكان واضحاً أن حملتهم الأولى على بلاد الشام عبرت في جوهرها عن هجمة صليبية شرسة خطط لها ملك أرمينية الصغرى هيثوم الأول مع هولاكو، وطلب الأخير من حليفه أن يلتقي به عند الرها ليرافقه إلى مدينة القدس ليخلص الأراضي المقدسة من قبضة المسلمين ويسلمها للمسيحيين.

بعد استيلاء التتار على دمشق وتدميرها سنة 658هـ/ 1260م قرروا التفرغ لمواجهة خطر المماليك في مصر، فأرسل هولاكو إلى السلطان

قطز طالباً منه التسليم، جمع قطز الأمراء واتفقوا جميعاً على محاربة التتار وإعلان التعبئة العامة وسيّر قطز الجيوش المؤلفة من العرب والأتراك ونزل مدينة غزة، ثم سار بمحاذاة الساحل إلى أن التقى الجمعان عند عين جالوت في 25 رمضان سنة 658هـ/ 1260م وتولى السلطان قطز بنفسه قيادة الجيش ومعه الأمير ركن الدين بيبرس، وانتهت المعركة بنصر حاسم للمماليك على التتار الذين قتل قائدهم كتبغا وانهزم جيشهم شر هزيمة، فكانت تلك المعركة فاصلة في تاريخ الشرق مما أنقذ بيت المقدس والشام كلها من براثن التتار، كما ترتب على تلك المعركة امتداد سيطرة المماليك على بلاد الشام وانحسار النفوذ الأيوبي عنها، وهكذا عادت وحدة مصر والشام في ظل حكومة مركزية قوية مما أشاع قدراً من الاستقرار لأول مرة في بلاد الشام بوجه عام، وفي بيت المقدس بوجه خاص وبعد انتهاء المعركة الحاسمة استولى قطز على الملك من بعده ولقد اهتم بعد ذلك كل من السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس والسلطان المنتصر سيف الدين قلاوون وكذلك أبناؤه أيما اهتمام بالقضية، وكانت نهاية الصليبيين على يد الأشرف خليل بن قلاوون الذي أخرج آخر جندي صليبي في الشرق الإسلامي.

يعد الظاهر بيبرس أول المماليك العظماء، ومؤسس سلطانهم الحقيقي وتستند عظمته إلى الحملات الموفقة التي جردها على الصليبيين ومهدت

السبيل للانتصارات التي جناها حلفاؤه من بعده، حيث قضى على مملكة أنطاكية الصليبية عام 666هـ / 1268م واستولى على كثير من مواقع الصليبيين وقلاعهم، وفتح قيسارية وصفد وهونين وتبنين والرملة وقلعة شقيف كما هاجم مدينتي صور وعكا أكثر من مرة حتى سعى إليه الفرنجة ليعقدوا معه الصلح، فوافق على عقد هدنة معهم مدتها عشر سنين وعشرة أشهر وعشر ساعات تبدأ من 21 رمضان من عام 670هـ / 1272م واهتم الظاهر بيبرس بتجديد الخلافة العباسية في القاهرة لإعطاء الصفة الشرعية لسلطتهم الوليدة، فكان بيبرس أول من تلقب بقسيم أمير المؤمنين من قبل الخليفة وهذا اللقب أجل الألقاب وقد قام الظاهر بيبرس بزيارة مدينة القدس عدة مرات وفي سنة 676 هـ / 1277 م توفي الملك الظاهر بيبرس في دمشق بعد أن ملك مصر والشام سبع عشرة سنة وشهرين، وتولى المُلك من بعده ابنه الملك السعيد ناصر الدين محمد ثم ابنه الثاني الملك العادل بدر الدين سلامش ولم يذكر التاريخ أنهما قاما بعمل في القدس وقد ترك المُلك كلاهما خلعاً.

القدس وعائلة قلاوون

كان أول من تولى السلطنة من أبناء قلاوون هو السلطان المنصور سيف الدين قلاوون 679هـ/ 1280م – 689هـ/1290م، وكان يلقب

بالصالحي الألفي، وقد برز في أواخر عهد الأيوبيين وخلع ابن الظاهر بيبرس سلامش وبويع بالسلطنة كان على ما وصفه المؤرخون فارسًا شجاعًا لا يحب سفك الدماء واهتم بجمع المماليك من كل جنس، وفي أيامه عرفت جماعة المماليك البرجية واهتم الملك المنصور قلاوون بمدينة القدس كثيرًا وأقام فيها أعمالاً عمرانية تدل على اهتمامه بها وبعد أن توفي السلطان قلاوون تولى ابنه الملك الأشرف صلاح الدين خليل، ثم ابنه الثاني السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ثم الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري المعروف بالصغير، وبعد مقتل الملك المظفر المنصور لاجين تولى الملك للمرة الثانية الملك الناصر محمد بن قلاوون ثم تسلطن الملك المظفر ركن الدين بيبرس المنصوري، ثم عاود للمُلك الناصر محمد بن قلاوون للمرة الثالثة.

القدس في عهد المماليك الشراكسة

المماليك الشراكسة أو الأبراج، وأصلهم من بلاد القفقاس وبلاد الشركس وقد استقدمهم الملوك العرب وأكثر من استخدامهم العباسيون والأيوبيون والمماليك البحرية، وفي عهد السلطان المنصور قلاوون التركي كثر عددهم حتى وصل إلى 3700 محارب، وكانوا يسكنون في أبراج قلعة القاهرة فعرفوا بالبرجية.

امتد نفوذ الدولة الشركسية ومقرها القاهرة إلى جميع المناطق التي كانت بحوزة الدولة المملوكية السابقة، ومنها مصر وبلاد النوبة وسورية الطبيعية ومناطق كليكيا وجبال طوروس الوسطى ومدائن صالح والحجاز حتى عسير من شبه الجزيرة العربية وكان لفلسطين شأن خاص عند السلاطين الشراكسة لقدسيتها وموقعها الهام، وكانت نيابة القدس من المناصب التي يتنافس عليها كبار القادة والأمراء.

بلغ عدد السلاطين الشراكسة 24 سلطانًا، أولهم الملك الظاهر سيف الدين برقوق وآخرهم الملك الأشرف طومان باي وقد حكم خمسة منهم 89 سنة من أصل 135 سنة دامت فيها دولتهم وهؤلاء هم: الظاهر برقوق، والأشرف برسبابي،والظاهر جقمق، والأشرف قاييباتي، والظاهر قانصو الغوري.

كان تنصيب السلاطين يتم بانتخاب أكثر المرشحين كفاية وكان يعاونهم في الحكم مجلس سلطنة يتألف من كبار القادة والأمراء ويسمى أعضاؤه أصحاب السيف وهم الذي ينتخبون السلطان ويبايعونه، ثم يبارك البيعة الخليفة العباسي وقضاة المذاهب الأربعة، وبذلك لم يكن هناك مكان للحكم الوراثي في عهدهم كما كان الحال عند المماليك الأتراك.